التصور اللغوى عند العرب

بقلم السيد أحمد خليل

يعنى الناس من حولنا فى الشرق وفى الغرب بدراسة لغاتهم وبيان أثرها وتأثرها بسواها رجاء اللفت إلى ما لها من ماض فى خدمة التفكر وما عسى أن تسهم به فى مستقبل يعين الانسانية الواعية على التمكن والقوة ، وقد تنوعت أبحاث اللغويين وتباينت أحياناً وجهات نظرهم فى هذا اللون من الدراسة تباين الميادين المختلفة التى يعملون فيها وينشطون لها ، ونحن هنا ، لن نعرض لبيان هذه الاتجاهات المختلفة ولا لما كان من أثر فى تنمية الوعى اللغوى وتوجيهه فلذلك كله ميدان آخر يتسع له الوقت وتأذن به شواغل الحياة فيما بعد .

أما وقد تجاوبت دعوات هاتفة بين دارسى العربية للعناية الدقيقة بهذه الجوانب المختلفة من الدراسة ابتغاء المعرفة الواسعة بحياة هذه اللغة معرفة تعين المتصدين لإصلاحها فيما يرون على أن يبدأوا أولى خطواته من تيسير لقواعد النحو وتخفف من أعباء الكتابة فيها إلى غير ذلك مما تسمع عنه كل يوم — أما وقد قرأت وسمعت عن كل أولئك وكاد يعصف الشك بيقينك فى كل مقرر ورثته عن حياة هذه اللغة حتى كدت تحس إحساسا حائراً مشفقاً أنها لغة متخلفة وأنها لم تعد صالحة كما كانت لتسع هذه الحضارة الجديدة التى امتدت جذورها فى كل ناحية من نواحى الحياة وربما كان ذلك هو الذى مال بشبابنا عن العناية بلغتهم ودفع بهم إلى الضجر الآثم أحيانا بما كان لأسلافهم من أثر فى نهضة الدرس اللغوى الذى عرفته الانسانية المثقفة منذ مئات السنين — أما وقد عرفت هذا كله واطمأنت نفسك إلى بعضه واستبدت بك الريبة فى كثير منه وحاول هؤلاء أن يلفتوك الى جديد يريدون أن يمدوا به لغتك ويبتغوا به نفعك فأكثروا من النقول عن علماء اللغات الأخرى وجدوا فى أن يشعروك أن ما وصلوا اليه من مصطلحات — جديد

فى الدرس اللغوى يمكن أن تستفيد به العربية فى حاضرها وأن يعمق به درس أصحابها لها كما أرادوا أن يخدعوك عن واقع تعيش فيه وتحس آثاره فجاهدوا أن يلقوا فى روعك أن العربية التى تتكلمها والتى تفكر بها بينها وبين المجتمع من حولك جفوة شديدة ؛ فهى لغة معزولة فى بطون الكتب ودفائن المراجع ، أما هذه العامية فهى اللغة المتطورة ، وهى أدق وسائل التفكير والتفاهم وهى الحالية بضروب من الصور الفنية الرائعة ، المنتزعة من هذه الحياة الاجتماعية المترابطة التى تعيشها ، ومن هنا ظهرت اتجاهات كثيرة عن اللغة والمجتمع تحدد اللغة تحديداً أوروبياً خالصاً وتطبقها تطبيقاً عامياً جارفاً وما بين هذا التحديد والتطبيق من قرون طالت أعمارها فلم يلفت هؤلاء الدارسين ولم يكن له فى حسابهم من أثر لأنها قرون التخلف والانعزال والتراخى عن ملاحقة الحياة فى سيرها الدائب وتطورها المتجدد .

تلك هى خطة سير هذه الأبحاث التى وقفت منها حائراً مشفقاً وتلك هى الضمائر الخفية التى تدفعها الى الوجود فى قلق ألبسوه ثوب العلم وصور عرضوه معرض الخفة والرشاقة .

وما عليهم بهم إذ مضوا فى هذه السبيل فلن تستطيع أن تردهم الى شىء مما يجب أن يقدروه فى أمانة الدرس اللغوى وما علينا إلا أن نقول لهم كما قال أسلافنا أن أولى خطى التجديد قتل القديم بحثا وأن التجديد القائم على الهوى مصيره القلق والحيرة والتردد ثم الموت فلنبعد الى ماكنا فيه — من الحديث عن تطور التصور اللغوى عند العرب .

. . . .

الواقع أن الخطة السليمة لدراسة العربية والوقوف على خطى تطورها ومدى ماكان لهذا التطور من أثر فى حياتها أن يبدأ الدارس أولا بتحديد مفهوم اللغة فى أذهان أصحابها والمتكلمين بها ثم جلاء الدوافع المتعددة التى دفعت بهم الى تدريج حياتها بما يساير تطور الحياة ونموها وبما يكشف عن مسالك اتصالها بغيرها من الشعاب التى انتهت اليها الحياة الاسلامية فى العلم والأدب والفلسفة والاجتماع الى غير أولئك من ضروب المعرفة

المختلفة التي اتصل بها العرب اتصالا مباشراً في حواضرهم المتعددة على ما كان لهذه الحواضر من تاريخ ينبغي أن يكون له تقديره في حياة هذه اللغة ، ولا أرتاب في أن هذه الخطة سوف تحدد معالم الطريق تحديداً يوسع آفاق هذه الدراسة ويجلو بعض الغامض من حياة العربية ويرد على متوهمي الجمود أنها لم تجمد لأنها كائن حي متطور يفعل وينفعل ويأخذ ويدع ، على أن هذا المفهوم الذي نحاول الكشف عنه قد تطور هو أيضا تطور العصور والبيئات والمعارف واختلف اختلاف هذه الميادين كلها ، فاللغة في ذهن العربي الخالص غيرها في ذهن المستعرب وهي تأخذ في أساليبها صوراً مختلفة اختلاف هذه الأذهان وتتشاكل أحياناً تشاكل الشخصيات المتكلمة بها والمستعملة لها متى كان هناك قدر مشترك من دوافع الحياة ونوازع العيش ، ومنابع الفكر ولعل هذا يفسر لنا بعض وجوه اختلاف المذاهب الفقهية اختلافاً يرتد الى اختلاف هذا المفهوم — روى الطبري[1] في تفسيره اختلاف الفقهاء في تفسير « أو لامستم النساء» رأي العرب والموالي في معنى اللمس وما كان لهذا التفسير من أثر في اختلاف الحكم الفقهي وما ترتب عليه من اختلاف في واقع العبادة العملي — وحكاية الطبري لرأي العرب والموالي في تفسير هذه اللفظة يدل بجملته على اختلاف المفهوم اللغوي في أذهان المتكلمين بهذه اللغة وما ترتب عليه من أثر في الفهم والتأويل كما يدل على أن هذا الاختلاف ذو علاقة كبيرة بماضي المتكلمين بهذه اللغة والمستعملين لها .

وفي هذه الفترة التي تتراكم فيها النقول المختلفة في كتب التفسير مقررة أمر هذا الاختلاف نجد أدبياً كالجاحظ يقرر أمر هذا الاختلاف لا من ناحية المفهوم اللغوي بل من جهة الاستعمال وبخاصة بين أهل الأمصار التي استقر بها العرب الفاتحون فيقول : « وأهل الأمصار إنما يتكلمون على لغة النازلة فيهم من العرب ولذلك نجد الاختلاف في ألفاظ من ألفاظ أهل الكوفة والبصرة والشام ومصر »[2]، . . .

---

(1) الطبري — جامع البيان ج ٥ ص ٦٥

(2) الجاحظ — البيان والتبيين نشر عبد السلام هارون ١٨

على أن هذا الاختلاف كان ينتهي أحيانا إلى نماذج أدبية يحاول أهلها أن يرقوا اليها . ولم يكن الشعر أحد هذه النماذج ولم يكن سبيله سبيل المتكلمين بالعربية فى أساليبهم بعد أن اتسعت الحضارة الاسلامية وشملت ألوانا من المعارف منها ما يتصل بالفكر كالفلسفة ومنها ما يلابس الوجدان كالتصوف ومنها ما يدفع بالحياة العملية التى يحياها الناس إلى التناسق والقوة كالفقه والتشريع فإذا عرفنا أن هذه الأمصار كانت مراكز الحضارة الاسلامية وأن لغات أهلها كانت أعمق اللغات وأخصبها وأقدرها على الحياة أدركت مدى الاجادة والدقة فى لغات أهلها واستطعنا فى دقة مقاربة أن ندرك إخلاصهم لهذه النموذجية التى يحكيها الجاحظ إذ يقول نقلا عن ابن الناذر : أما ألفاظنا فاحكى الألفاظ للقرآن وأكثرها له موافقة فضعوا القرآن بعد هذا حيث شئتم ، أنتم تسمون القدر برمة ونجمعونه على برام ونحن نسميه قدرا ونجمعه على قدور ثم يستطرد الجاحظ فيذكر أن أهل هذه الأمصار ربما أبقوا فى لغاتهم العربية على بعض ألفاظ استعاروها من ماضى أمصارهم ولغاتها القديمة ومن هنا يشير الجاحظ الى منهج خاص فى دراسة اللغة واللهجات -- عن طريق النصوص ليعرف الدارس أى الألفاظ أكثر شيوعاً وأدقها استعمالا وأوفاها فى تأدية المعانى .

هذه النقول وأشباهها تدل على أن العالم الاسلامى منذ القرن الثانى عشر قرنا كان يضطرب بعوامل التصارع بين الأجناس المختلفة التى ساطت دماؤها فى الحضارة العربية الاسلامية التى تحمل بين أطوائها عوامل التجاذب والتدافع والتقدم والتخلف شأن كل حضارة تنشط للحياة الكاملة فى الدور الأول من وجودها وتكونها والجاحظ نفسه مدرك تماما هذه الحيرة الثائرة التى تستبد بعقول المفكرين والعلماء حين فجأتهم الحياة الجادة بهذه الألوان المختلفة من المعرفة التى لابد أن تكون العربية لغة التعبير عنها . . .

فى هذه الغمرة الدافقة من المعارف نجد ابن جنى يبدأ درسه اللغوى على أساس البحث فى طبيعة اللغة ويبدأ بتعريفها فيقول ان اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ، ويبدو أن هذا التعريف أو هذا التصور

للغة كان أشد التصورات تأثيراً فى نفوس الدارسين وفيما كتبوه عن طبيعة اللغة بل كان الموجه فيما بعد لتطور التأليف اللغوى وتنوعه وما عسى أن يكون فيه من شمول يربط بين اللغة وبين الاتجاهات المختلفة فى دراستها ؛ ولأن اللغة أصوات تختلف من جيل الى جيل نرى طائفة كالمعتزلة ذهبت إلى أن اللغات ثبتت اصطلاحا[1] ومعنى هذا أن اللغة هى هذا الصوت الذى تتفق عليه مجموعة من الناس بحيث يكون مؤدياً لمعنى له فى حياتهم مكان وفى تفكيرهم أثر وفى اجتماعهم نفع أو ضر .

وبذلك فتح المعتزلة باب التصرف فى أساليب الدرس اللغوى فلم تكن ثمت حواجز تحول بينهم وبين هذه الرغبة بل أكد ابن جنى أن اللغة قد تعرف بالقرائن وأن من قال أنها لاتعرف إلا نقلا فقد أخطأ . . . . والطبرى نفسه يؤكد هذه الصوتية ويرى أنها هى التى تتحكم فى سير الأداء اللغوى وفى تنسيق حياته ومن ثم نراه يرفض فى إصرار القراءة بالكيفية كقراءة بعضهم وأنه أهلك عاداً الأولى ، وأنها لا تصح إلا لعربى يدرك دقة أداء الصوت أما للمولد فلا تصح[2] لأن أداءه إياها يقصر به عن بلوغ الغاية التى لايبلغها الا عربى خالص . . . ثم جاء على أثر هؤلاء فخر الدين الرازى فأشار الى أن الألفاظ بما لها من خاصية الصوت أقرب الوسائل وأيسرها فى أداء المعانى كما وصل بين هذه الصوتية وبين المجتمع فى تشابك حاجاته وتواصل غاياته فقال « إن السبب فى وضع الألفاظ الحاكية للصوت أن الانسان وحده لا يستقل بجميع حاجاته بل لابد من التعاون ولا تعاون إلا بالتعارف ولا تعارف إلا بأسباب . . . ثم مضى فى بيان أسباب هذا التعارف مفاضلا بينها ومعللا لاختيار الألفاظ بأنها توجد عند الحاجة وتنعدم عند عدمها » . . . والفخر الرازى فى تصوره المجمل للحياة اللغوية وعلاقتها بالاجتماع الإنسانى يدرك تماما تطور الحياة اللغوية السريع المتصل ويحس إحساساً دقيقاً بما يتصل بهذا التطور من اشتقاق واختراع لألفاظ

---

(1) المزهر ج ١ ص ٣٨

(2) الطبرى – جامع البيان – تفسير سورة النجم

جديدة تفى بحاجات هذه الحياة المتجددة . . . ويبدو أن الدعوة الى الاختراع والتوليد والاشتقاق قديمة فى المجتمع الاسلامى يوم التقت على أرضه حضارات وتفاعلت ثقافات وجدت بالناس اليها حاجة ملحة يقول قدامة[1] [الاختراع] ما اخترعت له العرب أسماء مما لم تكن تعرفه فيما سموه بإسم من عندهم تسميتهم الباب فى المساحة باباً أبى أن ينقل عن أرسطو رأيه فى الاختراع وأنه قانون عام تخضع له جميع اللغات .

وفى هذه الفترة التى تظهر فيها فكرة " الصوتية " تظهر نظرية فى النقد الأدبى تقول : إن المعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العربى وغير العربى وإنما يتفاضل الناس فى التعبير عنها وقدرتهم على التشيل الدقيق لها ، ومن العجيب أن يكون الجاحظ من أنصار هذه النظرية والداعين إليها ثم يكون لها فيما بعد آثار بينة فى المتناولين لقضية الاعجاز القرآنى ، ولكن يظهر أن المعانى التى يقصدها الجاحظ هى المعانى الأدبية العامة إذ أن صنيعه فى كتاب الحيوان يُعَدِّل هذه النظرية فقد قدر عنصر المعنى وأبان فى إجمال عن دقته وبين حظ اللغة فى الوفاء بالدلالة عليه ولعل قدامة كان أنفذ منه رأيا حين قدر وظيفة اللغة من ناحية ارتباطها بالمجتمع واتصالها بألوان الحياة فيه — فدعا الى الاختراع . ويظهر أن ما دعا اليه قدامة . . كانت سبقته إرهاصات حتى فى البيئات الدينية وقد أشار ابن جنى نقلا عن بعض علماء اللغة الى ما كان للشافعى — فى ذلك . . فقال : « القياس يجرى على اللغة وعزا هذا الى الشافعى رضى الله عنه ثم قال — ولم يدل عليه نصه وإنما دلت عليه مسائله وليس بين أيدينا من كتب الشافعى غير الرسالة وفيها نظرات لغوية تدل على ما وراءها من عوامل كان يضطرب بها العالم الإسلامى يومئذ كتلك الدعوة التى أفرد لها الشافعى صفحات طوالا عن نفى تأثر العربية بغيرها من اللغات واتجاهه الى القول بالاتفاق فى الوضع اللغوى اذا وجدت

(1) قدامة — نقد النثر ص ٦٣

(2) الخصائص ص ٥٩

متشابهة بين ألفاظ عربية وأخرى غير عربية » ولعل هذا الذى يشير إليه ابن جنى نقلا عن بعض علماء اللغة معزوا الى الشافعى بنصه أو بما يدل عليه صنيعه هو ما يمكن أن يستفاد من حديثه عن العربية بعامة وأنها أوسع اللغات وأرحبها مذهباً . . .

إلى جانب هذه اللفتات الدقيقة فى بيان وظيفة اللغة فى المجتمع وصلتها به ثم تعاون اللغة والمجتمع فى ميادين الفكر والأدب والتفلسف نجد دارسى العربية يدركون اختلاف طرائق المتكلمين بالعربية والمستعملين لها فى صياغة الألفاظ ثم الأساليب وعلاقة هذا كله بدقة الأسلوب وجودته . فيشيرون إلى الاستعمال عند العربى والمولد والمحدث [1] وهى إشارات فيها كثير من الدقة وتقدير أصيل لسير الحياة الإسلامية وما تركته من أثر فى الحياة اللغوية ثم لما كان لاتصال الحضارات المختلفة بالحضارة الإسلامية وكيف أثر هذا كله فى القيم اللغوية الموروثة فعدل بها أحياناً عن طريقها الأول فى الأداء اللغوى . . . . . . بل أن ما لاحظه الطبرى من قبل من التفرقة بين العربى والمولد فى قراءة النص القرآنى يدل على مدى ما كان لهذا الاتصال من أثر . . . .

هذا الناموس العام فى حياة اللغات بعامة من التأثير والتأثر قد دفع بكثير من الأوربيين أحياناً الى مجانبة القصد فى دراسة العربية إذ ربطوا بينها وبين المقررات الإسلامية وحاولوا شيئاً من هذه الدراسة التاريخية لألفاظها لا رغبة فى البحث العلمى ولا حرصاً على نفع العربية ذاتها بل إكمالا لما بدأوا به نشاطهم الأول الذى كان هدفا من أهداف التعصب وقد أشار الى ذلك جملة " Sweetman " فى كتابه Interrelation between Islam and christianity

(١) الرسالة مبعة مصطفى محمد ص ٤١ ـ ٦١

(٢) الايضاح فى علوم البلاغة الثلاثة ص ٤

مما لا حاجة بنا معه الى إيراد بعضه بله الإشارة اليه غير أنا وقد أشرنا الى شيء من صنعهم فى تأريخ بعض الألفاظ العربية نعرض وجهة نظرهم فى هذه الدراسة ، يقول كاتب مادة لغة فى دائرة المعارف للعلوم الاجتماعية (1) ما ترجمته « من بين هذه التغيرات اللغوية المدينة إلى هذه النماذج الواضحة من الاتصال والتى تؤدى دوراً هاما فى تاريخ اللغة - استعارة كلمات من لغة ما ، وهذه الاستعارة تسير جنبا الى جنب مع الاتصال الحضارى بين أمة وأخرى وإن دراستنا التحليلية لبعض هذه الكلمات عمل جليل يكشف عن اتجاه التأثير الحضارى . . . » ثم ضرب مثلا لذلك باللغة الانجليزية وكيف تأثرت باللاتينية واليونانية والفرنسية وسواها من اللغات التى احتكت بها أو اتصلت بحضارتها ، ثم يرى كاتب هذه المادة أن تأثر اللغة الناقلة باللغة المنقولة لا يقف عند هذا بل يتجاوزه الى تأثير الصوتيات فى اللغة الناقلة فيقول : « إن التأثير الصوتى الحادث من اللغة المنقولة ربما كان بالغ الأهمية وهناك كثير من الدلائل التى تكشف عن كثير من الخصائص اللغوية التى نشأت نتيجة لنقل الصوتيات عن طريق العادات اللغوية » .

هذا الذى يلاحظه كاتب هذه المادة وهو ترجمة لما لاحظه من قبل علماء اللغات الأخرى -- قد لاحظه علماء المسلمين منذ مئات السنين وقد نقلت بعض اشاراتهم اليه - وقد فطن الى هذا اللغويون من أصحاب الحديث فأشاروا اليه تفصيلا ولفتوا إلى ما كان لتداخل اللغات من أثر فى فشو اللحن وتيسير أمر التصحى على الناس واتخاذ ذلك كله أداة للتظرف وما أعقب هذا كله من تطور سريع فى دلالة الألفاظ تطوراً يلاحق الحياة الإسلامية (2) .

(1) Encyclopedia of the Social Science 164

(2) ابن الاثير - النهاية فى غريب الحديث ج ١ المقدمة .

هذه الصوتية التي حدّ اللغة بها لغويو العرب كان لها آثارها العملية في دراسة خصائص الحروف ومخارجها في إفرادها وتركيبها وما قد يكون لهذا كله من أثر في أداء المعاني والتفت اليها ، ولا شك أن القرآن الكريم كان الموجه الأول لهذه الدراسة ونجد أشارات بينة في الكتاب لسيبويه ثم جاء من بعده ابن سنان الخفاجي فكتب كتابه سر الفصاحة — عن تنافر الصوتية وتآلفها في اللغة وأثر ذلك في البناء اللغوي — وربما كانت ملاحظة صوتية اللغة — قد ارتبطت بالدين عند المشارقة وتركت أثرها فيما بعد عند المفكرين اللغويين من الأوروبيين فقد كانت اللغة منذ فجر التاريخ لغة الدين وللدين أسرار ينبغي أن تتضمنها اللغة باعتبارها أداة التعبير عن معانيه المختلفة .

وربما كان المتصوفة من أشد الناس تعلقاً بهذه الأسرار ورغبة في الوصول إليها وضيعهم في ذلك امتداد لمحاولات مبكرة لتحديد العلاقة بين الأسرار الدينية وبين اللغة وقد أشرت الى ذلك في أبحاث مضت كان للهنود فيها السبق الأول وقد عرض (Robert Lowrie) في الفصل الذي عقده عن التصور البدائي للروح الى هذه الروحية التي تكمن في كل شيء .. وأن هذه الظاهرة قد شاعت بين المجتمعات البدائية . . على أنه لم يفطن الى هذه المرحلة التي تطورت فيها الحياة الانسانية حين نزلت الأديان السماوية . . ثم إن Tylor فيما نقله عنه Lowrie قد عرف Animisme بأنه الاعتقاد في الكائنات الروحية ثم قال ومن ثم فإننا سوف نأخذ في هذا الكتاب بهذا التعريف ولكن ماذا يقصد بالروحي : إن الروح طبقاً لما ورد في معاجم اللغة تتشخص في الكائن الذي هو أعلى من الطبيعة سواء أكان خيراً أم شريراً .. إلى أن يقول ونحن متفقون على أن الروحية تمثل اتجاهاً مضاداً للوجود المادي . .

إلى جانب هذا التصور اللغوي عند الصوفية الذي كشف عنه « تايلور » وعلله زمنياً بحياة المجتمعات البدائية — نجد تصوراً آخر عند العقليين

the premitive relagions. (1)

من المفكرين اللغويين وهم الذين اتصلوا بالفلسفة وبالمنطق الأرسطى وعاشوا عليهما زمناً . . وقد نجد هذا النوع من التصور واضحاً عند الأصوليين ولذلك كانت المقدمة اللغوية عندهم من أدق وأولى ماكتب وما يكتب عن الحياة اللغوية منذ نشأت اللغة الى أن أصبحت كائناً معقد البناء والتركيب ، غير أنه ينبغى أن نلاحظ أن الأصوليين لم ينزعوا منزع المنطق الشكلى الصورى فى بناء الأسلوب على هذه القوالب الجافة والتى تنعقد فيها الصورة المنطقية بما قد يصعبها على الفهم كما فى « الموجهات » وأنواعها وإنما حرصوا على فكرة الأسوار المنطقية لارتباطها بالحكم الشرعى فى عمومه وخصوصه ثم على بعض الأشكال القياسية لتحديدها للمجال الذى يصح أن يسعى فيه المتصدى للاستنباط الفقهى ، وربما كان العرب من أوائل المفكرين الذين فطنوا إلى قيمة هذه الشكلية فى صياغة الفكر الانسانى وإلى ما قد يكون فيها من خطأ مضلل أحياناً — والى أن المدار كله على صحة القضايا التى يتألف منها الشكل القياسى كله .

وهذه التفرقة بين الشكلية ومضمون القضية قد أشار اليها جملة Antony Flow فقال ماترجمته [1] إن من الأصول الأولى أن ندرك أن التشابه النحوى والمفارقات ربما تكون مضللة منطقياً حتى أن النوع الجديد للنقد المنطقى الذى أعرضه — فى هذا المجلد — قد يتطور هو الآخر وهذا كله ينتهى الى أن القضايا المهمة نحوياً ربما تكون غير مشهورة ولامعروفة بين القضايا المنطقية والعكس بالعكس . . فالصلة إذن بين النحو والمنطق فى بناء التركيب اللغوى قد تنبه إليها لغويو العرب فى صورة مقاربة أو لا تقل فى دقتها عما وصل اليه الباحثون المحدثون .

وهكذا نجد أن اللغة بحكم وظيفتها الاجتماعية سلوك متميز لأنواع خاصة من الكائنات الحية وقد نقلنا بعض نقول عن علماء ومفكرين إسلاميين تؤكد هذه الوظيفة وتعلل لوجودها وتصل بينها وبين الاجتماع

(1) Essys on Language and Logic p. 8

الانسانى فى أوجه نشاطه المختلفة . . على أن هذا كله هو ما وصل اليه علماء الغرب بعد طول الدرس يقول قائلهم ما ترجمته (١) :

هناك بعض خصائص عامة تشترك فيها كل اللغات سواء منها الحية والميتة ومما يأتى فى المكانة الأولى من هذه الخصائص أنها نظام لرموز صوتية لتعبير عن الفكر والشعور الذى يستطاع التعبير عنه — إلى جانب أنها ترتبط بالأوتار الصوتية للكائنات الثديية العليا .

ولم يكن ما قاله كاتب هذه المادة جديداً نؤخذ به أو نراه لازما للافادة منه فى درسنا اللغوى فقد لاحظه من قبل السكاكى فى مفتاح العلوم فعرض لهذه الفكرة تفصيلا ورسم كيف يحدث الصوت وأشار إلى العوامل التى تؤثر فى حدوثه من احتكاك وارتفاء وانفجار وهمس إلى غير اولئك . . بل أن لغوى العرب وصلوا بين هذه الأوتار فى أدائها للصوت اللغوى وبين المعنى الذى تعبر عنه هذه الألفاظ من ناحية تأثيرها فى النفس وما قد ينتج عنه من رغبة أو رهبة بل زادوا على ذلك أنهم نظروا الى الصوتية فى التركيب اللغوى كله ولعل هذا يفسره صنيعهم فى أول أبحاثهم عن البلاغة والفصاحة واعتدادهم تآلف الأصوات من أصل الأصول فى البنية الأدبية .

واذ قد ساقنا الحديث الى الكلام عن الدلالة اللغوية أو كما يسميها المحدثون Semantics والى علاقتها باللفظ المعبر عنها فلا مندوحة من أن نشير الى ماكان للغوى العرب من أثر فى هذه الناحية وما قد يكون لهم من تفكير خاص سبقوا به سواهم من دارسى اللغات .

لقد تيقظ العرب الى فكرة المعجم منذ عصور مبكرة تقديراً منهم لسير الحياة اللغوية وارتباطها بالمجتمع وحرصوا على أن يصنفوا معاجمهم تصنيفا يتبع هذه الصوتية وقد ظهر ذلك أول ما ظهر فى كتاب العين

(١) Insy clopeadise of the Social Sciance : Language

كما أنهم حرصوا على رواية كل مايحدد معانى الألفاظ من الشعر وغيره وقد روا اختلاف القبائل فى الاستعمال ومن هنا ظهرت أبحاث عن المترادف والمتضاد على أن منهم من أنكر مبدأ الترادف لأن فيه تساهلا فى التفرقة بين دلالة الألفاظ وتهوينا لأمر الدقة فى الاستعمال وما يذكره [1] الراغب فى مقدمة مفرداته عن معنى الريب والشك يؤكد ذلك .

ويظهر أن المسلمين كانوا أول من قدر اختلاف الدلالة باختلاف البيئات المستعملة لألفاظ اللغة ومن هنا تعددت معاجمهم واختلفت اختلاف الميادين التى يعمل فيها الفكر الاسلامى فمعجم للحديث وآخر للقرآن وثالث للتجوز الأدبى ورابع للمصطلحات — وفى سبيل المعرفة بسير تطور الدلالة وجدت أبحاث خاصة فى الاشتقاق وأنواعه وكان القصد منه تطويع اللغة لتكون أداة التعبير عن ضروب المعانى المختلفة بشرط أن يكون هناك معنى مشترك يربط بين هذه الاشتقاقات المختلفة قبل أن تتفرق بالمادة اللغوية سبل الحياة . . ويظهر أن ابن جنى أول من فصل القول فى هذا الاشتقاق فقسمه إلى صغير وكبير .

هذا هو المضطرب الواسع الذى تطور فيه التصور اللغوى عند العرب وكان من أمره ما رأيت فى البيئة الاسلامية وما انفرد به كل لغوى من ملحظ آثره بالعناية دون سواه إلى أن تم انفصال العلوم اللغوية واستقل كل منها عن الآخر حين اتجه دارسو العرب الى دراسة الأسلوب فترى شراح تلخيص المفتاح ينقلون عن الزمخشرى ما يحدد العلاقة بين هذه العلوم إذ يقولون : « أعلم أن علم العربية على ماقال الزمخشرى يرتقى الى إثنى عشر علماً غير أن أصولها أربعة وهى اللغة والتصريف وبينهما النحو فان التراكيب هى المقصودة منه » ثم يقولون [2] « أن علمى أصول الفقه والمعانى فى غاية التداخل فإن الخبر والانشاء اللذين يتكلم

---

[1] الراغب الأصفهانى : مفردات القرآن : المقدمة .

[2] شروح التلخيص جـ ١ ص ٣٥

عنهما علم المعانى هما موضوع علم الأصول وأن كل ماتكلم عليه الأصولى من أن الأمر للوجوب أو الندب أو التحريم ومسائل الأخبار والعموم والخصوص والاطلاق والتقييد . . كلها ترجع إلى موضوع علم المعانى وليس فى أصول الفقه ما ينفرد به غير الحكم الشرعى » .

فقد رأينا إذن أن التصور اللغوى قد انتهى آخر الأمر إلى دراسة عامة هى دراسة الأسلوب وأن درسهم إياه قائم على المفاضلة بين طرق الأداء وبيان أشدها تأثيراً فى النفس وتصويراً للمعنى . على أنه ينبغى أن نشير إلى أن العرب لم يفردوا الأسلوب العلمى بالدراسة مفرقين بينه وبين الأسلوب الأدبى ولعل ذلك مرده الى اتصال البلاغة بالإعجاز القرآنى وبدراسة الشعر خاصة غير أن هذا النص الذى نقلناه عن شرح التلخيص والذى يسوُّون فيه بين الأصول والمعانى وذلك لارتباط كل منهما بالحكم الشرعى الذى يراد استنباطه لتصحيح واقع عملى يقوم على حقائق من ماديات الحياة . . هذا النقل بجملته يدل على التفات العرب الى الفرق الواضح بين الأسلوب العلمى والأدبى على النحو الذى أشار اليه Wrem إذ يقول ما ترجمته « وثمة مبدأ جديد فى دراسة اللغات اذ يقسمها إلى لغة دالة وهى التى تستعمل فى تقرير الحقائق ولغة عاطفية أو شعورية وهى التى تعمل على إثارة الأحاسيس والعواطف ومن نقطة البدء هذه ينبغى أن نعرف أن اللغة العاطفية لا تعد أداة التعبير عن الحقائق » .

هذا الشعور الدقيق بالفرق بين الأسلوب العلمى والأدبى اللذين يمثلهما علم المعانى والبيان هو الذى دفع الأستاذ أمين الخولى فى كتابه فن القول أن يرد على البلاغيين دراستهم لباب القصر والفصل والوصل ويرى أن موضعهما علم النحو لأنهما موضوعان لتصحيح المعانى ولا مندوحة للكاتب أو أديب أن يستعمل سواهما إن أراد القصر أو الفصل على حين تقوم البلاغة على المفاضلة بين الأساليب .

وفى القرن الثامن الهجرى يعرض ابن خلدون فى مقدمته منهجه فى دراسة الأسلوب . . ويظهر أنه كما درس أسلوب العيش وطرائق الحياة اعتد من بينها الأسلوب الكلامى لأنه أداة التعبير عن هذه الأشياء كلها ولعل هذا يفسره قوله . . إن اللغة ملكة صناعية ، كما يفسره لنا تحديده للأسلوب بأنه الملكة التى تأتى عن طريق ممارسة النصوص واستثفاف ما فيها من حال تؤديه اللغة وقد عرض ابن خلدون الى علاقة الأسلوب العلمى بهذه الملكة مما لا حاجة بنا الى إيراده (١) . .

ومنذ سنوات كتب الأستاذ محمد خلف الله أحمد مقالا عن العوامل التى أدت الى تبلور اللغة الأدبية وتقنينها (٢) وهى محاولة طيبة أشار فيها إلى المراحل التى ساوت فيها اللغة الأدبية حتى العصر الحاضر ، كما عرض فيها الى رأى المرصفى الذى هو فى واقع الأمر ما ارتآه ابن خلدون منذ قرون . . . . .

هذا هو التصور اللغوى عند العرب لمن أراد التجديد فى دراسة العربية فى هذه الفترة من حياتنا .

(١) wrenn : the English of Language p. 3

(١) ابن خلدون المقدمة ص ٥٧٨ — ٥٧٩

(٢) الأستاذ محمد خلف الله — مجلة كلية الآداب سنة ١٩٥٥ Early stages in the Development and Standardisation of arabic literary language.

المراجع

مراجع عربية :

ابن الأثير ... ... النهاية فى غريب الحديث

ابن سنان الخفاجي ... ... سر الفصاحة

السيوطى ... ... المزهر

الشافعى ... ... الرسالة

الطبرى ... ... جامع البيان

الجاحظ ... ... البيان والتبيين

ابن جنى ... ... الخصائص

المراجع الأوروبية :

(1) Insyclopaedia Of the Social Sciences.

(2) Wrem — the English Language.

(3) Lowrie : Essys on Language and Logic.